الغَدير فَرادَةٌ واتِّساق

تأليف
محمّد رضا شرف الدين الموسويّ العامليّ

مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، حمداً دائماً في السرَّاء والضرَّاء، والشدَّة والرَّخاء، كما هو أهله، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لأحد سواه الخيرة.

والصلاة والسلام على حبيبه المصطفى، خيرته من خلقه محمد بن عبد الله، ومن استخلص من آله، ولا سيما الكهف الحصين، وغياث المضطر المستكين، بقية الله في الأرضين.

واللعن الوبيل والعذاب الأليم أبد الآبدين على أعدائهم أجمعين.

أما بعد، فإنَّ هذه السطور تهدف إلى **بيان محلّ الغدير ورسالته من المنظومة الدينية والبلاغات النبوية**، مما يشترك غيرها معها مضموناً، ثم بيان **عناصر الفرادة فيها**، والتي تجعل هذا الحدث وما يحويه **فريداً وتراً منقطع النظير**، وذلك في ومضاتٍ وإلماحاتٍ تقتضيها الحال ويتطلَّبها المقام.

فإنْ كُتب لي ما صَبَوتُ إليه فذاك بابتداء مَنٍّ مِن ربي عز اسمه، وعنايةٍ من خلفائه صلوات الله عليهم، وإن لم يكن فهو من قصور راقم السطور، وحسبي أن حاولت ملتمساً عذري في يوم ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ الله﴾[1] حيث كلٌّ مِنّا طَوَّقَ جيدَه حَقٌّ ثابتٌ في أداء رسالة الغدير، وإبلاغ نداء النبيّ صلى الله عليه وآله فيه، حين أفاد إنكم مسؤولون **فليبلغ الشاهد منكم الغائب**[2].

فأقول والله المستعان، وعليه التّكلان، متوسلاً إليه بصاحب الذكرى عليه وآله السلام.

---

(١) الزمر٥٦.

(٢) الكافي ج١ ص٢٩١.

تمهيد:
الغدير الرِّسالة والرَّمز والشِّعار

الغدير هو الأساس.. هو الماضي والحاضر والمستقبل..

ومن الشجرة الطيبة: **هو الأصل والفروع والأغصان** لا نهائية الأبعاد، بعيداً عن صناعة الخطابة وأدلجة الخطاب.

الغدير.. وَمِن عَجَبٍ أن يكون الغدير بحراً محيطاً لا يُحاط به.

أبعاده طولاً وعرضاً وعمقاً هي كذلك طولاً على امتداد تاريخ الأمة ومستقبلها، وعرضاً يلقي بمظلته على منظومة رسالتها، وعمقاً من تخوم الأرض إلى عنان السماء، موصلاً بينهما بحبل ممدود أوحد، صراطٍ فاردٍ لا يقبل البَدَلَ ولا التبديل، ولا الحياد ولا التحويل.

وبين تلك اللانهائيات **كيف للقلم أن يسعف صاحبه؟!**

وهب أنه أسعفه، **فمن أين يأتي بالمداد ليسعف القلم؟!**

إلا أن **يستعير من الغدير مداده غَرْفاً لا ينزف** ومدداً لا ينضب، فمنه وإليه..

موضوعٌ ضاربٌ في القِدَم بعُمُر العالم، ومستمرٌّ في مرافقته لأجيالٍ إلى أن يحقق أهدافه كاملة، حيث يواكبها إلى يوم الوقت المعلوم، بل إلى يوم يبعثون، ويتجاوز هذه النشأة ليحضر بقوَّةٍ في القبر والقيامة، وسائر منازل الآخرة، من نشر وتطاير كتب وحساب وميزان وصراط وحوض، ونارٍ وجنان، دركاتٍ للأولى ودرجاتٍ للأخرى.

وكما **لحضوره الضمانة للأمة**، والنظام للملة، والأمان من الفرقة، والمصباح المنير من العماية والجهالة.. **فكذلك لغيابه أو تغييبه أضدادها** التي ما زلنا منذ أن غُيِّبَ نرزح تحت نيرها، ومعنا البشرية بكل اتجاهاتها.

ثم إن واقعة الغدير **استثنائيةٌ بكل المقاييس وعلى جميع الصعد**؛ فمضافاً إلى محتواها الذي تقدمت الإشارة إليه تحمل خصوصياتٍ في إرهاصاتها ومخاضاتها وظروفها ولغتها ونتائجها، ما تضمنته من أفعال وردود أفعال مجتمعة لا نجد لها نظيراً أو شبيهاً.

محورية الخلافة النبوية والإمامة الإلهية

ما جانب الصواب من زعم أنَّ **الاختصار الجامع لرسالة الغدير هي الخلافة الإلهية، ومن ثم فإن المنفذ الطبيعي لقراءتها هو النظر لماهية الخلافة وآثارها الوجودية وارتداداتها العدمية**[1].

هي تلك الحقيقة التي **تعرضت للتقزيم النمطي**، إمعاناً في تقليصها، وصولاً إلى إعقامها، وقد لا يبدو مبالِغاً من ادعى سريانها في الجسم الإيماني من رأسه فقوائمه إلى قدميه، توحيداً وعدلاً ونبوَّةً ومعاداً ومعرفةً وتشريعاً.

تنبيه منهجي

إنه من **آفات الأبحاث العلمية** ولاسيما العقدية منها أن **تسلم إلى الميول والعواطف**، في مفارقةٍ موضوعيةٍ سافرةٍ تأخذ بيد صاحبها إلى تعصُّب غير منطقي، ليكابر متعامياً عن مؤدَّيَات الأدلة حتى يخشى من انطباق قوله تعالى على بعضهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[2] ، وقد رأينا بعض من ابتلي بها أعاذنا الله من ذلك فترى النتائج التي هي أكبر من مقدماتها، والاستظهارات التي لا يساعد عليها إشعارٌ فضلاً عن ظهور.

وفي قبال ذلك أو من رحم هذه الحالة اللاصحيَّة تولد حالةٌ غير صحية فتاكة كردة فعل عليها، وبين مطرقة الأولى وسندان الأخيرة **تطحن الحقائق بل العقائد الحقة ليجتني المرءُ الشقاءَ في النشأتين**، وقد يورد معه غيرَه المهالك، فيصبحوا بذلك أهون هالك: ذاك حيث يريد الباحث أن ينأى بنفسه عن الميل العاطفي، أو العقل الجمعي، ويحرص عليها من أن تستسلم لحالة الانحياز اللاعلميّ، فيعمد إلى مجانبة كل نتيجة توافق مؤدّاهما، **فيلوي ذراع**

---

(١) الارتدادات العدمية رأسها انعدام العدل الذي جاء نتاجاً تلقائياً لجحد الغدير، ومن انعدام العدل ينبثق انعدام صنوف الخير والرخاء، فكما عن سيد الأوصياء: **بالعدل قامت السماوات والأرض**، وعنه عليه السلام: **جعل الله العدل قواماً للأنام وتنزيها عن المظالم والآثام وتسنية الاسلام**.

(٢) النمل ١٤.

النصوص الصريحة الصحيحة، ويفند الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وهذا المهم هو الذي يدعو إلى التحذير جدّاً من الحالتين اللتين باتتا فعليَّتَين في الساحة العلمية والثقافية، تفتكان بالبنية المعرفية والتشريعية، بين التسطيح من جهة، والتعمّق المذموم من جهة أخرى، وتبقى حكاية الإفراط والتفريط وخسائرهما الفادحة[1].

منهجية البحث العلمي بين التسطيح والسَّرطَنة الفكرية

ولذا يتعين التوازن واتباع الدليل بحذافيره، وإعمال النظرة الشاملة المتكاملة بين العناصر الدلالية المتلاحقة المتلاقحة، بعيداً عن كلّ انتقائيّة وانحياز، للحصول على مشهدٍ كامل، حتى تنعقد ثمرتها وتبلغ حد الإيناع فتؤتي أكلها.

وارتكازاً على هذا التنبيه نأتي لنطبّق ذلك على قضية الخلافة الإلهية، مجتنبين لتلك المحاذير، مستعينين بالله تعالى، متوكلين عليه، متوسلين إليه بأحب خلقه وصفوة بَريّته صلوات الله عليهم، على أن البيان منا جاء مراعياً لمقتضى الحال الذي يفرضه ضيق المجال لينصهر في مقتضب المقال.

الأدلة على محورية الخلافة

الأوّل: الارتكاز الشيعي

يطالعنا بَدواً ارتكازٌ شيعيٌّ عامٌّ، ظاهرُ البوادرِ في حالةٍ شبه عامة، بل عامة منذ سالف الأعصار، تسبق مرحلة الغيبة، بل يعود إلى حياة النبي صلى الله عليه وآله، شُحِنَت به كتب السنن والمناقب والسيَر والتاريخ والأيام والاحتجاجات، ومنها ما يظهر منه جلياً بما لا مزيد عليه أنه **علامةٌ فارقةٌ في جبين التشيع**، كان وما زال يدلُّ على أن **الخلافة النبوية والإمامة الإلهية هي المدماك والترُّ والمِطمَر، والحد الفاصل والفصل المقوم لحقيقة دين الله تعالى**، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه الجواز على الصراط، وصك البراءة من النار، والفوز بالنعيم الأبدي.

إن هذا الارتكاز لا يمكن تخطّيه أو التنكّر له أو الاستهانة به، خصوصاً مع كونه لا

---

(١) ولي بحثٌ مسهبٌ لم يبصر النور.

يقتصر على فئة خاصة أو شريحة معينة من أبناء الفرقة الناجية، ومن شذَّ منهم – إن كان ثمة من هو كذلك – فلا يعوّل على مخالفته.

ومع ذلك فإن النظر في منشأ هذا الارتكاز له دوره، خشية كونه وليد ظروفٍ قاسيةٍ من لجاجاتٍ معاندة، وَلَّدَت تعاطفاً عارماً جاء نتيجةً لها، مضافاً إلى اضطهاد العترة الطاهرة، فيؤدي ذلك إلى توهينه، أو أن يعضده النظر في الأدلة، وهو أمرٌ يتبيّن لاحقاً إلا أن يشاء الله تبارك وتعالى.

الثاني: الخطابات القرآنية

وهي على قسمين رئيسين:

القسم الأول: تعتمد في دلالتها بذاتها خِلواً من العناصر الخارجية من الأخبار أو الآثار، وفيها اتجاهٌ عامٌ لا يسمح بالتغاضي عنه، وهو أن الخضوع والعبودية للخالق محكّه الأرقى ورتبته العليا تكون بالخضوع لمشروع عهد الله تعالى في خلافته واستخلافه، دون أدنى اعتراض أو أنفة، في نَسَقٍ واحدٍ من فاتحة الكتاب إلى آيات سورة البقرة بتقسيمها الثلاثي:

١. النصّ على المَثَل الإلهي.

٢. والعهد والميثاق ونقضهما.

٣. والمثل التاريخي الإسرائيلي.

لنجد مشروع التمرُّد على مشروع الله تعالى منطلِقاً من هذه النقطة بالتحديد بشكل واضح.

والقسم الثاني: تعتمد على عناصر دلالية خارجية من مناسبات النزول والأحاديث والآثار المنبّهة على القرائن الداخلية، أو المتممة للدلالة، أو المطبّقة، أو المؤوّلة.

وقد صنّف أعلام أهل القبلة من الشيعة وغيرهم أسفاراً قديماً وحديثاً تعسَّرَ أو تعذَّرَ إحصاؤها.

الثالث: التراث الحديثي

من الخطابات النبوية، إلى النصوص المعصوميّة الواردة عن العترة الطاهرة، إلى الآثار

الواصلة عن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، التي تخطّت المصاعب والمتاعب والتحديات والمحدوديات وعوامل الطمس والتغييب.

وقد تجاوز رواتُها ونَقَلَتُها الاصطفافاتِ والمشاربَ والمذاهبَ، مما أضفى عليها وأضاف إلى قوتها قوةً.

وليس للباحث الموضوعيّ أن يقتصر في بحثه على ما كان عنوانه محوريتها كأحاديث أركان الإسلام، وإنما تلزمه المنهجية السليمة باستقصاء الأحاديث، حتى تلك التي ليست في مظان العنوان، ليجد نفسه بين يدي كثرةٍ كاثرةٍ ذات مضامين عالية، تشير إليه بقوةٍ لم تتضافر بإزاء أي عنوان آخر.

وهنا نتعرض إلى فهرسةٍ إجماليةٍ لتلك الطوائف فتحاً للمجال أمام المتثبّت الحصيف:

١. ما دلَّ على **محورية الحب والبغض بشكل عام** في تقرير مصير الإنسان[١].

٢. ما جاء في بيان ماهية الإمامة وحقيقة الإمام.

٣. أحاديث توأمة القرآن والعترة وطبيعة العلاقة بينهم وبين القرآن على ضوء النصوص المنزلة والواردة في فضل القرآن.

٤. ما دلَّ على آثار حب الله وحب رسول الله وأهل البيت صلى الله عليه وعليهم.

٥. ما تناول الولاية والبراءة[٢].

---

(١) تُراجع أحاديث الحب في الله والبغض في الله في الكافي والمحاسن وعلل الشرائع وروضة الواعظين والوسائل وغيرها، كقول الصادق عليه السلام: **كُلُّ مَنْ لَمْ يُحِبَّ عَلَى الدِّينِ وَلَمْ يُبْغِضْ عَلَى الدِّينِ فَلَا دِينَ لَهُ** (الكافي ج٢ ص١٢٧)، ويلاحظ إرداف العمل الصالح للحب في الله كقول النبي صلى الله عليه وآله: إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الإِيمَانِ الحُبُّ فِي الله وَالبُغْضُ فِي الله، تَوَالِي وَلِيِّ الله وَتَعَادِي عَدُوِّ الله (المحاسن ج١ ص١٦٥)، وقول الصادق عليه السلام: مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي الله وَتُبْغِضَ فِي الله وَتُعْطِيَ فِي الله وَتَمْنَعَ فِي الله (المحاسن ج١ ص٢٦٣)، ومثلها أحاديث: هل الدين إلا الحب والبغض؟ والمرء مع من أحب، ومن أحب عمل قوم.. وغيرها.

(٢) ومصاديقها وجهاتها كثيرةٌ، منها بطلان الأعمال لولا الولاية: كما عن رسول الله صلى الله عليه وآله: وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ نَبِيّاً لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَقِيَ اللهَ بِعَمَلِ سَبْعِينَ نَبِيّاً ثُمَّ لَمْ يَأْتِ بِوَلَايَةِ أُولِي الأَمْرِ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ مَا قَبِلَ الله مِنْهُ صَرْفاً وَلَا عَدْلا (قال في النهاية: «قد تكررت هاتان اللفظتان في الحديث، فالصرف:التوبة، وقيل النافلة.

٦. ما عني ببيان موقعيّة ولاية أهل البيت والبراءة من أعدائهم.

٧. ما نص على آثار ولاية علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحبه وبغضه.

٨. فضائل عليّ وأهل البيت صلوات الله عليهم.

٩. ما دل على حقيقة الحبط والتكفير عند الموافاة، وميزان حسن العاقبة وسوء العاقبة.

١٠. ما حكم بعدم جدوى الأعمال خصوصاً الجوارحية منها دون انعقاد القلب على الحق.

١١. ما جاء في بيان خير العمل وأفضل الأعمال.

١٢. نصوص الصلاة عليهم، وحقيقتها وآثارها وفضلها، وكذلك لعن أعدائهم.

هذا مع أن دلالتها على العنوان لفظية بالمطابقة والتضمن والالتزام، وغير لفظية بجعلها كبريات أو صغريات تنضم إلى غيرها من المقدمات فتنتجه.

ولعل مهرجان الغدير في حدّ ذاته بما له من خصوصياتٍ وما اكتنفه من ميزاتٍ لم تتفق لأية مفردة من مكونات المنظومة الدينية برمتها، خير شاهدٍ كلونٍ من ألوان الدلالة على محورية الخلافة النبوية والإمامة الإلهية.

ونختم هذه الفهرسة بإشارة لطيفة:

إن الأعمال والأقوال جسمٌ روحه النوايا، فهي ترجمان القلوب، ظاهرٌ يعرب عن باطن،

والعدل: الفدية، وقيل الفريضة) (الأمالي للمفيد ص١١٥)، وكقوله صلى الله عليه وآله: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ عَبْداً جَاءَ يَوْمَ القِيَامَة بِعَمَلِ سَبْعِينَ نَبِيّاً، مَا قَبِلَ الله ذَلِكَ مِنْهُ حَتَّى يَلْقَى اللهَّ بِوَلَايَتِي وَوَلَايَةِ أَهْلِ بَيْتِي (الأصول الستة عشر ص٣٣٣)، وكقوله صلى الله عليه وآله: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَنْتَفِعُ عَبْدٌ بِعَمَلِهِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ حَقِّنَا (المحاسن ج١ ص٦١).

وكالخبر المروي عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهَّ: قَدْ يَصُومُ الرَّجُلُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، وَيَتَصَدَّقُ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْهُ إِلَّا خيرا، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الوَلَايَةَ.

قَالَ: فَتَبَسَّمَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: يَا ثَابِتُ! إِنَّا فِي أَفْضَلِ بُقْعَةٍ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَوْ أَنَّ عَبْداً لَمْ يَزَلْ سَاجِداً بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمَقَامِ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا لَمْ يَعْرِفْ وَلَايَتَنَا، لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ شَيْئاً (الأصول الستة عشر ص٣٣٣).

قيمته بقيمتها، على أنَّ العقيدة تأبى إلا أن تتجلى بالقول والعمل.

هذا ومن أعظم الأعمال العمل الجوانحيّ المتمثل بولاية ولي الله تعالى، والبراءة من أعدائه، فالولاية لها جنبةٌ عمليةٌ تجعلها شاملةً له ولا عكس.

على أن الخلافة تتجلى محوريّتها في تحديد المصدر المعرفي والتشريعي، وتحديد مسيرة الفرد والمجتمع، فهي لا تقتصر على الجهة التنفيذية، بل هي مجمعٌ للقوى الرئيسة الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية في الأمة.

وهل يمكن تجاهل فاعليتها في تفعيل سائر مكونات المنظومة الدينية والتفاعل فيما بينها؟ وكذلك رسم طبيعة العلاقة بين المنظومة الدينية والمكونات الخارجة عن الدين، فكراً وعقيدةً وسلوكاً، فهي الأساس في تعيين طبيعة العلاقات أيضاً.

وبالمزيد من التأمل قد يُدّعى انطباق هذا الأمر حتى على الأنظمة الوضعية في التجارب البشرية، التي يُدّعى أنها مستقلةٌ عن الواقع الإيماني والتراث الوحياني، ومن ثَمَّ نجد سَورَة العنف تتصدّر مشهد التاريخ البشري وحضاراته تنافساً على الاستئثار بالسلطة، الذي لا يهدف إلى السيطرة على منابع القوة المادية فحسب، وإنما يهدف إلى الاستحواذ على روح الإنسان وفكره، ولذا قاسى أئمة الهدى عليهم السلام ما قاسوه من أهوال التنكيل وفجائع الوقائع التي أنزلتها سلطات الجور عليهم، مع تأكيدهم الجاد على الكف عن منازعة السلطان سلطانه.

اتساق الغدير

نفلٌ من القول بيان مخاضات الرسالة المحمدية الشريفة المتعسرة، وما واجهته من عقباتٍ كأداء رافقت صدرها خطوة بخطوة، وما فرضه الواقع من تدرُّجٍ بيانيٍّ للمعتقد والتشريع، إلا أننا نرى أنَّ **رسالة الغدير واكبت الرسالة النبوية والدعوة المحمديّة منذ أن استهلّت وإلى يوم رحيل الهادي الحبيب** صلى الله عليه وآله، فمن أراد تفصيل هذا المجمل فعليه بسبر غور أسفار الأعلام من أبناء الفرقة الحقة في غابر الأزمان إلى هذه الأيام، أو أن يكتفي بهذه اللمحة.

فحديث الدار، وحسبنا به من حديثٍ سارت به الركبان، وتعاهده المؤالف والمخالف روايةً ودرايةً، يحكي لنا حادثة إنذار الأقربين قبل الجهر بالرسالة، وفي بعضها ورد خبر تأخر النبي صلى الله عليه وآله عنه حتى هبط أمين الوحي عليه السلام يبلغ التشديد: .. **يَا مُحَمَّدُ إِلَّا تَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ يُعَذِّبْكَ رَبُّكَ**[1].

فدعاهم وأطعمهم وسقاهم، فحال أبو لهب بينه وما أراد، فتفرقوا ولم يكلمهم، ثم دعاهم من غدٍ وبَلَّغهم، وما زاد عن بلاغين:

الأول: أنه جاءهم بخير الدنيا والآخرة.

والآخر: قضية الوزارة والخلافة.

وهنا وقفاتٌ ولفتاتٌ أهمها أن **المنظومة اقتصرت على أصول المعتقد، ومنها الخليفة والوزير**، فهناك مرسِلٌ، ونذير، ورسالة اكتفى منها بأنَّها فيها خير الدنيا والآخرة، **ووزير مفترض الطاعة**.

خليفةٌ ووزيرٌ **لا يقبل تعيينه التأجيل والتأخير**، ثم لما ظهر أنه الفتى - ولعله أصغر الحاضرين سناً - لم يتوان في أن جهر به، ولم تمنعه خشيةٌ من استهزاء، وحزازةٌ من تكذيب، وهكذا كان.

ومنذ ذلك اليوم إلى الغدير واكبت هذه الرسالة رسالته يوماً بيوم، منمنماتٍ وشذرات

---

(١) تفسير البغوي ج٦ ص١٣١.

وإشارات متناثرةً على أيامها، فَمِن نَصٍّ على أعلميته، إلى أقضائيته، إلى أقربيته منه، إلى أحكميته وأشجعيته، ومضارعته للنبي صلى الله عليه في شخصه وأحكامه وامتيازاته، إلى جعله مع من يدعي أو يُدّعى له منافسته في مضمار، ليخرج منه السَّبَّاق الذي لا يُشق له غبار، وبين تلك المنمنمات، بين فترة وما يليها يأتي بنصٍّ جامعٍ مؤكِّدٍّ على حقيقة خلافته وولايته.

وقد تلا الغدير تحشيدٌ هائلٌ للبلاغات والبيانات والدلالات الواضحات، لم يثقله عنها تثاقل أنفاسه ووهن بدنه، وما دهاه فجأة - يبعث على العجب العجاب ممن يتخطاه ولا يتوقف ليقف على فاجعة اغتياله - من عارضٍ أرداه على فراشه، وارتعاشٍ غالَ كفيه[1]، لا يكف عن ذلك حتى دعا بكتفٍ ودواةٍ في آخر خميسٍ من عمره الشريف.

هذه حكاية اتساق الغدير، حيث لم يكن وتراً في مضمونه وفرداً في مدلوله، بل كان مُتَّسِقَاً على نسقٍ واحد مع ما سبقه وما لحقه، سارياً في عروق جسم الرسالة، متغلغلاً في أعراق أرضها، باسقاً في آفاقها.

(١) روى البخاري عن عائشة أنَّه صلى الله عليه وآله كان يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ. ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى. حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ (صحيح البخاري ج٨ ص١٠٧).

فرادة الغدير

وأما فرادته في إرهاصاته ومقدماته وملابساته الحثيثة، ومتنه ومستتبعاته وارتداداته، فإنه تظهر بالنظر إلى المقتضب التالي:

أهم الأحداث التي سبقت الواقعة

ثبوت الإعجاز الحضاري

صعود نجم الرسالة في حربها وسلمها بعد المواجهات العسكرية، التي بدا فيها متفوقاً تفوقاً إعجازياً، دارت رحاه على سيف علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وتهاوي قلاع الناكثين من اليهود، دون أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب.

ثم ما أثمره صلح الحديبية ففتح مكة ليظهر الإسلام منهجاً مشرقاً قوياً ومرِناً في آن معاً، يمتلك مبادئ سامية وسياسة مثالية مختلفة عن سياسة القوى البشرية، وله قواعد اشتباك تتناسب مع تلك المبادئ.

وحيث خرجت بذلك الدولة المحمدية الفتيّة مرفوعة الهامة من أشد الاختبارات وأدقها، واستغلظت واستوت على سوقها - خلال سنوات معدودة - حضارةً ترقى سماء الحضارات، تعلو أعرقها تراثاً، وأثراها تاريخاً، وأوسعها رقعةً شرقاً وغرباً، دون مبرر بشري حسي ملموس، وكانت آية ذلك تبوك التي تعد الضربة الاستباقية الأبرز، والحملة الارتدادية الأقوى، حيث انسحبت أعتى القوتين العظميين أمام صاحب الرسالة دون مواجهة، وأعقب ذلك عام الوفود، أضخم حراكٍ سياسيٍّ خاضه النبي صلى الله عليه وآله.

إقصاء دنس المشركين عن الحج

بعد كل ذلك تقدَّمَ الغديرَ حدثٌ هامٌّ في السنة التاسعة للهجرة، قبل حجة الوداع الحاضنة لمهرجان الغدير، تَمَثّل بنزول سورة براءة، وإرسالها بياناً يُقرَأ على عموم الجماهير، ليُعلم أنَّ الذي ظل مقيماً على ضلاله، عاكفاً على كفره بعد كل تلك الحوادث التي أتمت الحجة على القاصي والداني، فهو مقصي عن قلب هذا المجتمع النابض بالتوحيد.

فعاد رجع صدى الأمر الإلهي لإبراهيم وإسماعيل على نبينا وآله وعليهما السلام ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[١] بأمر لوارث إبراهيم ومحيي مِلّته ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[٢].

فأرسل عنه من يقوم مقامه في بلاغها، ثم أرجعه مستردّاً مستبدلاً عنه برجلٍ منه، امتثالاً لخطاب ربه، ناصّا أنه لا يؤدي إلا أنت أو رجل منك، وقد قال: **عَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْه**[٣]، مثبتاً مرتبة (المِنيّة) له قبل أن يثبت الكتاب الكريم مرتبة (النفسيَّة) له ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾[٤] يوم المباهلة من العام نفسه، وفي المبدل والبديل، والإرسال والاستبدال من التمهيدات والدلالات ما يتطلب إيغالاً في البحث لا تتسع له هذه العجالة، وإن كانت لا تخفى سطوره العريضة ودلالاته الرئيسة على طالب حق.

النفير العام

ولما حل الحول القابل نزل الوحي ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[٥].

ولما استهل ذو القعدة أعدَّ النبي صلى الله عليه وآله العُدّة للحج، وأذّن المؤذنون المبتعثون بأمره في الناس نفيراً مرغّبين حاضِّين أنَّ خاتم النبيين هو أمير حاجهم، ومرشد مناسكهم، وبذلك أمر بكتبٍ أبردها إلى الخطط النائية إلى من بلغه كتابه ممن دخل في الإسلام، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يريد الحج يؤذنهم بذلك ليحج من أطاق الحج..

---

(١) البقرة١٢٥.

(٢) التوبة٢٨.

(٣) المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام ص٦٢٥.

(٤) آل عمران٦١.

(٥) الحج٢٧-٣٠.

وقد أثمر هذا النفير تلبيةً عامةً من المدينة ومَن حولها معه، ولأهل منازل الطريق انتظارٌ لركبه والتحاق به عند وصوله إليهم، لم يتخلف عنه إلا ذو عذر أقعده عن اللحاق بهذه المسيرة الكبرى، حتى خرجت الحوامل المقربات، ومنهن السيدة الجليلة أسماء بنت عميس التي نَفَسَت بمحمد بن أبي بكر في ذي الحليفة.

وقد شملت المسيرة الأسرة النبوية بنسائها وأطفالها، وسارت القافلة تربو على سبعين ألفاً، عدا من التحق بها من مستدركاتٍ متفرقةٍ انضمت إليها تباعاً، فكوّنت سيلاً بشرياً مهيباً ممتدّاً من المدينة المنورة إلى مكة المكرّمة، هادراً يملأ الفضاء بالتلبية.

بعث اليمن

ومقارنا لدعوته تلك أرسل علياً أمير المؤمنين إلى اليمن بعد إخفاق غيره في دعوة أهل اليمن لينضموا إلى الحق، بدعوةٍ سلميةٍ علويةٍ استجابت لها عقولهم وقلوبهم إلى النور النبوي، وقد قضى بينهم رائباً صدعاً أصابهم فيما بينهم، فكان فتح الله على يديه ثلاثياً: إسلاماً وتفقهاً وصلحاً بعد شقاق، وأراهم من خوارق نواميس الطبيعة بإذن ربه ما أعانه على تلك الفتوحات، وليلتحق بعدها هو ومن تبعه من اليمنيين وغيرهم بالحج الأكبر.

وفي ذلك ما لا يخفى من إبراز كفاءات علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فهو كما أنه الكرار
في الكَرَائِه، سَيِدُ الفتح السِّلميّ حيث عاد فاتحاً دون أن يمتشق سيفاً، أو يشرع سناناً، أو يريش سهماً، بما له من حكمةٍ ودرايةٍ وقوة جذب، وهو العالم المُعَلِّمُ بفقهه وتفقيهه، وهو الحَكَم المصلح بكل ما يحتاج إليه المقام.

تمهيداته المكية

دخل الرَّكبُ مكة في فتحٍ جديد، يقدمها ابن مكة، سليل مشايخ أباطحها، ليدخل المسجد الذي طهّره من دنس الأوثان قبل عامين، على يد علي، ومِن دنس عبدة الأوثان قبل عامٍ ببلاغ البراءة الذي أداه عنه علي صلى الله عليهما وآلهما.

طاف بالكعبة حتى إذا بلغ الركن اليماني رفع رأسه إلى الكعبة وقال: **الحَمْدُ لله الَّذِي**

شَرَّفَكِ وَعَظَّمَكِ، وَالحَمْدُ لله الَّذِي بَعَثَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَ عَلِيّاً إِمَاماً، اللهمَّ أَهْدِ لَهُ خِيَارَ خَلْقِكَ، وَجَنِّبْهُ شِرَارَ خَلْقِك (الكافي ج٤ ص٤١٠).

وفي اهتمامه بالحجر الأسود واستلامه وتقبيله له ومخاطبته والسجود عليه، وكذا في تقسيم شعره للتبرك على من أراد من الحجاج، ومجه في دلوٍ وإفراغه على سقايتهم بلاغاتٌ لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وقد كان منه صلى الله عليه في بعض مواقفه نَسفٌ لسننٍ جاهلية، واستعادة إحياءٍ لسننٍ إبراهيمية خولفت في ما بعد وحُرّفت جهاراً، وتولى طمسها مِن بعده تيّارٌ ساد الأمة وذاد عنها أهل بيته عليهم السلام، وهم المستضعفون في الأرض، الموعودون بالمن الإلهي ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾، ومن تبعهم إلى يوم الناس هذا، وهو سر الخلاف -فيما نعتقد وهو الحق- بين مناسكهم ومناسك من خالفه بمخالفتهم، وقد وقعت مواجهاتٌ مع بعض الشرائح من المجتمع الإسلامي، حيث تصادموا معه في رحلته تلك وأمام ناظريه، فغضب وأبدى غضبَه مقالاً وحالاً حتى روي عنه قوله لبعض نسائه: **مَا لِي لَا أَغْضَبُ وَأَنَا آمُرُ بِالشَّيْءِ فَلَا يُتَّبَعُ**[١].

وقوله في موقف آخر: **أَتَتَّهِمُونِي وَأَنَا أَمِينُ أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الأَرْضِ؟!**[٢]

وقد أسرف بعضهم نكيراً على فعله فوسمه بما وصمه به إلى آخر عمره بقوله صلى الله عليه وآله: **أَمَا إِنَّكَ لَنْ تُؤْمِنَ بِهَذَا أَبَداً**[٣].

وفي قبال ذلك بان من علي تجاهه صلوات الله عليهما وآلهما تمام الاتباع والموافقة نيّة وفعلاً.

والملاحظ جدّاً أنه لم يحتجب عن الناس، ولم ينزل في دارٍ من دور مكة وفيهم بعض أرحامه، ولم يلب دعوة أحدٍ إلى النزول في داره، بل آثر النزول مع الناس، وأقام خيمته بينهم، ولا نرى أنه أراد مواساة آحاد الحجيج فحسب، بل كان مضافا إلى ذلك حريصاً على

---

(١) أمالي ابن بشران ج١ ص٧٠.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ج٧ ص١٢٧.

(٣) الكافي ج٤ ص٢٤٦.

بقائه في قلب المشهد، حاضراً يقيم الحجج حجة بعد حجة، ممهداً للحدث القادم الذي هو بمنزلة ذي المقدمة عند كل غير مكابر.

مواقف الموقف

لقد اختبر الناس بفروع الفروع التي لا تصادم شيئاً من مصالحهم، ولا تستفز بعضاً من ضغائنهم، فألفى من الكثيرين صدوداً وعناداً، **فكيف بالمهمة الكبرى والتي دنا وقتها وأزف موعدها**، أعرب عنه حديث قدسي هبط به أمين الوحي، عندما وقف الموقف فأتاه جبرئيل عليه السلام وقال:

يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنَّهُ قَدْ دَنَا أَجَلُكَ وَمُدَّتُكَ، وَإِنِّي أَسْتَقْدِمُكَ عَلَى مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ. فَاعْهَدْ عَهْدَكَ، وَتَقَدَّمْ وَصِيَّتَكَ، وَاعْمِدْ إِلَى مَا عِنْدَكَ مِنَ العِلْمِ وَمِيرَاثِ عُلُومِ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ، وَالسِّلَاحِ وَالتَّابُوتِ، وَجَمِيعِ مَا عِنْدَكَ مِنْ آيَاتِ الأَنْبِيَاءِ، فَسَلِّمْهَا إِلَى وَصِيِّكَ وَخَلِيفَتِكَ مِنْ بَعْدِكَ، حُجَّتِيَ البَالِغَةِ عَلَى خَلْقِي، عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

فَأَقِمْهُ لِلنَّاسِ، وَخُذْ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ وَبَيْعَتَهُ، وَذَكِّرْهُمْ مَا أَخَذْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْعَتِي وَمِيثَاقِيَ الَّذِي وَاثَقْتَهُمْ بِهِ، وَعَهْدِيَ الَّذِي عَهِدْتَ إِلَيْهِمْ مِنْ وَلَايَةِ وَلِيِّي وَمَوْلَاهُمْ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

فَإِنِّي لَمْ أَقْبِضْ نَبِيّاً مِنْ أَنْبِيَائِي إِلَّا بَعْدَ إِكْمَالِ دِينِي وَإِتْمَامِ نِعْمَتِي بِوَلَايَةِ أَوْلِيَائِي وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِي، وَذَلِكَ تَمَامُ كَمَالِ تَوْحِيدِي وَدِينِي، وَإِتْمَامُ نِعْمَتِي عَلَى خَلْقِي بِاتِّبَاعِ وَلِيِّي وَطَاعَتِهِ. وَإِنِّي لَا أَتْرُكُ أَرْضِي بِغَيْرِ قَيِّمٍ لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَى خَلْقِي.

فَ ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾. عَلِيٌّ وَلِيِّي وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، عَلِيٌّ عَبْدِي وَوَصِيُّ نَبِيِّي وَالخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ وَحُجَّتِيَ البَالِغَةُ عَلَى خَلْقِي.

مَقْرُونٌ طَاعَتُهُ مَعَ طَاعَةِ مُحَمَّدٍ نَبِيِّي، وَمَقْرُونٌ طَاعَةُ مُحَمَّدٍ بِطَاعَتِي؛ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ طَاعَنِي، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَانِي. جَعَلْتُهُ عَلَماً بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي؛ فَمَنْ عَرَفَهُ كَانَ مُؤْمِناً، وَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ كَافِراً، وَمَنْ أَشْرَكَ بِبَيْعَتِهِ كَانَ مُشْرِكاً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِوَلَايَتِهِ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ

لَقِيَنِي بِعَدَاوَتِهِ دَخَلَ النَّارَ.

فَأَقِمْ يَا مُحَمَّدُ عَلِيّاً عَلَماً، وَخُذْ عَلَيْهِمُ البَيْعَةَ، وَخُذْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي بِالَّذِي وَاثَقْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنِّي قَابِضُكَ إِلَيَّ وَمُسْتَقْدِمُكَ[1].

وبادر النبي صلى الله عليه وآله إلى تبليغ ما حُمّل بخطبة له في عرفة، أو باختبار النوايا، وإبداء العذر، وتمحيص الجمع، ومحق المبطلين، واستخراج الدفائن، وإبداء الواقع القائم، فما أن مهّد لمقالته ملوّحاً بِعِدَّةٍ طَيِّبَةٍ بهم مِنعَةُ الدين وَعِزُّهُ ونَصرُه، وهم اثنا عشر لا ينقصون ولا يزيدون، حتى عبثت شياطين الجهالة والعماية والنفاق بالجمع، فقطعوا عليه بالغوغاء واللغط والصراخ والتكبير خطبته، وجعلوا يقومون ويقعدون حتى أَصَمُّوا السامعين عن كلامه، وحجبوا الناظرين عن رؤيته، وروي عن مستفهمٍ أنَّه أجيب بأنه نسب الاثني عشر إلى قريشٍ كلَّهم.

وهي رزيةٌ تلتقي برزية الخميس، وتستقي من آسن ماءٍ واحد، وأي إهانة تحمّلها قلبه الأقدس في آخر سنةٍ من عمره بعد كل تلك التضحيات الجسام، والجهود العظيمة التي كابدها لينقذهم من الحضيض، وقد كانوا من قبل مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقبسة العجلان وموطئ الاقدام، يشربون الطرق ويقتاتون القد، أذلة خاشعين خاسئين، يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم[2].

وربما كانت منه مبادرات من أمثاله، كما كان عن الصادق عليه السلام فيما روي عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي المِقْدَامِ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ الله (ع) يَوْمَ عَرَفَةَ بِالمَوْقِفِ وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ الله (ص) كَانَ الإِمَامَ، ثُمَّ كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ثُمَّ الحَسَنُ ثُمَّ الحُسَيْنُ ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ (ع) ثُمَّ (هَهْ)، فَيُنَادِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لِمَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ اثْنَيْ عَشَرَ صَوْتاً.

وَقَالَ عَمْرٌو: فَلَمَّا أَتَيْتُ مِنًى سَالتُ أَصْحَابَ العَرَبِيَّةِ عَنْ تَفْسِيرِ (هَهْ) فَقَالُوا: هَهْ لُغَةُ بَنِي فُلَانٍ: أَنَا فَاسْأَلُونِي، قَالَ ثُمَّ سَالتُ غَيْرَهُمْ أَيْضاً مِنْ أَصْحَابِ العَرَبِيَّةِ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ

---

(١) روضة الواعظين وبصيرة المتعظين ج١ ص٨٩.

(٢) إشارة إلى ما ورد في خطبة الزهراء عليها السلام (دلائل الإمامة ص١١٤ وغيرها).

(الكافي ج٤ ص٤٦٦).

وقد ورد في كتاب إقبال الأعمال للسيد بن طاووس بعد هذه الرواية: فمن أهم مهمات أهل الإيمان في يوم عرفة الإشارة كما قلناه إلى معرفة إمام الزمان مع الأمان اقتداء بمولانا الصادق (ع) وعلى آبائه وأبنائه الطاهرين أفضل الصلوات، فقد عرفت ما كان عليه من التقية مع ملوك تلك الأوقات، ومع ذلك فرأى الإشارة إلى الأئمة من المهمات (إقبال الأعمال ج١ ص٣٣٠).

ولعله كان لمنى أيضاً نصيبٌ منه صلى الله عليه وآله كالذي كان لعرفة.

ومع ذلك كله لم يمنعه تعذّر المعسور أن يؤدي الميسور بمثل ما رواه جابر بن عبد الله حيث قال: بَيْنَا النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) بِعَرَفَاتٍ وَعَلِيٌّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) تُجَاهَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ أَوْمَأَ النَّبِيُّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) إِلَى عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَقَالَ: ادْنُ مِنِّي يَا عَلِيُّ، فَدَنَا مِنْهُ، فَقَالَ: ضَعْ خَمْسَكَ- يَعْنِي كَفَّكَ- فِي كَفِّي، فَأَخَذَ بِكَفِّهِ، فَقَالَ: **يَا عَلِيُّ، خُلِقْتُ أَنَا وَأَنْتَ مِنْ شَجَرَةٍ، أَنَا أَصْلُهَا، وَأَنْتَ فَرْعُهَا، وَالحَسَنُ وَالحُسَيْنُ أَغْصَانُهَا، مَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ**[1].

خطبة الخيف وأخواتها

تكريس العترة ثِقَلاً عِدلاً للكتاب الكريم يشفع قوله بلغة الجسد، يجمع بين مُسَبِّحَتيه، وينفي أن يكونا مشبّهتين بالوسطى، لا تسبق واحدةٌ أختها أو تفضل هذه على هذه، وله معهما موعدٌ عند حوضه، حيث الاجتماع الأبديّ توأمةٌ خالدةٌ لا تقبل الانفكاك.

ولخطبته في منى أخواتٌ لسنا نجزم أهي من قصار كلماته، أم شذراتٌ عاث بها الزمن من خطب، ومهما كان فإن فيها ما يعزز العنوان الأكبر: وصية بالقرآنٌ، وأمرٌ ببثّ السنة التي ستلاقي محنةً كمحنة العترة من بعده منعاً وتغييباً، وتحذيرٌ من كَذبَةٍ، وإنذار لمتقوّلين، وإخبارٌ ملحميٌّ غيبيٌّ عن وقوع تشاحٍّ قرشيٍّ على الملك فيما بينها، ورواج المال السياسي استمالةً للجماهير.

وروي عنه كذلك قوله: لَأَعْرِفَنَّكُمْ تَرْجِعُونَ بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ،

(١) الأمالي للطوسي ص٦١١.

وَايْمُ الله لَئِنْ فَعَلْتُمُوهَا لَتَعْرِفُنِّي فِي الكَتِيبَةِ الَّتِي تُضَارِبُكُمْ.

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى خَلْفِهِ فَقَالَ: أَوْ عَلِيٌّ، أَوْ عَلِيٌّ، أَوْ عَلِيٌّ؛ ثَلَاثاً. فَرَأَيْنَا أَنَّ جَبْرَئِيلَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) غَمَزَهُ.

وَ أَنْزَلَ الله (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ بِعَلِيٍ، ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾.

ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ، رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي القَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ مِنْ أَمْرِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، ﴿إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وَإِنَّ عَلِيّاً لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ، وَ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ عَنْ مَحَبَّةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ[1].

تصريح ختام المناسك

المشهد الذي تلا المناسك صورته الرواية التالية:

لَمَّا قَضَى رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) مَنَاسِكَهُ مِنْ حِجَّةِ الوَدَاعِ، رَكِبَ رَاحِلَتَهُ وَأَنْشَأَ يَقُولُ: لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ مُسْلِماً.

فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ (رَحِمَهُ الله) فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الإِسْلَامُ؟

فَقَالَ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ): الإِسْلَامُ عُرْيَانٌ لِبَاسُهُ التَّقْوَى، وَزِينَتُهُ الحَيَاءُ، وَمِلَاكُهُ الوَرَعُ، وَجَمَالُهُ الدِّينُ، وَثَمَرُهُ العَمَلُ الصَّالِحُ، **وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ، وَأَسَاسُ الإِسْلَامِ حُبُّنَا أَهْلَ البَيْتِ**[2].

وبيت القصيد في الجملة الأخيرة التي رويت عنه صلى الله عليه وآله في وقائع مختلفة وبطرق متعددة.

وسئل بعد المناسك عما فرضه الله فنزل الوحي بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾

---

(١) الأمالي للطوسي ص٣٦٣.

(٢) الأمالي للطوسي ص٨٤.

يعني الولاية[١].

ونقل عنه مجيئه المسجد الحرام مودعاً واقفا بباب الكعبة، ممسكاً بحلقة الباب، منادياً الناس بأعلى صوته، فتحلّقوا حوله وأقبل عليهم بوجهه الكريم قائلاً: **اسْمَعُوا أَنِّي قَائِلٌ مَا هُوَ بَعْدِي كَائِنٌ فَلْيُبَلِّغْ شَاهِدُكُمْ غَائِبَكُم**[٢]، ثم بكى حتى بكى الناس لبكائه!!

وفي ذلك من المعاني والدلالات الكثير مما يهب شحنةً كبيرةً لمهرجان الغدير، وأيسر ما يمكن استخلاصه منه:

١. تأكيده على اتصاله بالخالق تعالى.

٢. إحاطته بالخلق علماً مستفاداً باطلاع منه تقدست أسماؤه.

٣. إنذاره للمتربصين بالأمة السوء والمتآمرين على الحق.

٤. إظهار مدى إشفاقه ورأفته بالخلق.

٥. تليينه القلوب بإبكائه العيون، وتحفيز القوة العاطفية في الجماهير، مما يبعث على تفعيل قابليتهم للتقبّل.

ومن المشاهد في تلك الرحلة التي سبقت المهرجان نجد ما تحكيه هذه الرواية:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ)، قَالَتْ: حَجَّ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) حِجَّةَ الوَدَاعِ بِأَزْوَاجِهِ، فَكَانَ يَأْوِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ وَهُوَ حَرَامٌ[٣] يَبْتَغِي بِذَلِكَ العَدْلَ بَيْنَهُنَّ.

قَالَتْ: فَلَمَّا أَنْ كَانَتْ لَيْلَةُ عَائِشَةَ وَيَوْمُهَا، خَلَا رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ) يُنَاجِيهِ وَهُمَا يَسِيرَانِ، فَأَطَالَ مُنَاجَاتَهُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى عَائِشَةَ. فَقَالَتْ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى عَلِيٍّ فَأَنَالَهُ -أَوْ قَالَتْ: أَتَنَاوَلَهُ- بِلِسَانِي، فِي حَبْسِهِ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَنِّي.

---

(١) يراجع تفسير القمي ج٢ ص٢٠٤، والكافي ج١ ص٤٢٠.

(٢) جامع الأخبار ص١٤٠، وعنه بحار الأنوار ج٥٢ ص٢٦٢.

(٣) أي محرم.

فَنَهَيْتُهَا، فَنَصَّتْ[١] نَاقَتَهَا فِي السَّيْرِ، ثُمَّ إِنَّهَا رَجَعَتْ إِلَيَّ وَهِيَ تَبْكِي. فَقُلْتُ: مَا لَكِ؟ قَالَتْ: إِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ) فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ، مَا تَزَالُ تَحْبِسُ عَنِّي رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ)!

فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ): لَا تَحُولِي بَيْنِي وَبَيْنَ عَلِيٍّ، إِنَّهُ لَا يُحَاقُّهُ فِيَّ أَحَدٌ، وَإِنَّهُ لَا يُبْغِضُهُ -وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- مُؤْمِنٌ، وَلَا يُحِبُّهُ كَافِرٌ. أَلَا إِنَّ الحَقَّ بَعْدِي مَعَ عَلِيٍّ، يَمِيلُ مَعَهُ حَيْثُمَا مَالَ، لَا يَفْتَرِقَانِ جَمِيعاً حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَقُلْتُ لَهَا: قَدْ نَهَيْتُكِ فَأَبَيْتِ إِلَّا مَا صَنَعْتِ[٢].

ولعل هذه الرواية ترتبط بما جاء في رواية إرشاد القلوب التي نقلها عنه العلامة المجلسي، وهي طويلة مفصلة ومما جاء فيها:

وَ دَخَلَ مَكَّةَ فَأَقَامَ بِهَا يَوْماً وَاحِداً، هَبَطَ عَلَيْهِ الأَمِينُ جَبْرَائِيلُ (ع) بِأَوَّلِ سُورَةِ العَنْكَبُوتِ، فَقَالَ: اقْرَأْ يَا مُحَمَّدُ، بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. ﴿الم * أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾.

فَقَالَ رَسُولُ الله (ص): يَا جَبْرَائِيلُ، وَمَا هَذِهِ الفِتْنَةُ؟

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله تَعَالَى يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنِّي مَا أَرْسَلْتُ نَبِيّاً قَبْلَكَ إِلَّا أَمَرْتُهُ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِهِ أَنْ يَسْتَخْلِفَ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ وَيُحْيِي لَهُمْ سُنَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ. فَالْمُطِيعُونَ للهِ فِيمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ رَسُولُ الله (ص) هُمُ الصَّادِقُونَ، وَالْمُخَالِفُونَ عَلَى أَمْرِهِ هُمُ الكَاذِبُونَ.

وَ قَدْ دَنَا يَا مُحَمَّدُ مَصِيرُكَ إِلَى رَبِّكَ وَجَنَّتِهِ، وَهُوَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْصِبَ لِأُمَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ (ع) وَتَعْهَدَ إِلَيْهِ، فَهُوَ الخَلِيفَةُ القَائِمُ بِرَعِيَّتِكَ وَأُمَّتِكَ؛ إِنْ أَطَاعُوهُ أَسْلَمُوا، وَإِنْ عَصَوْهُ كَفَرُوا، وَسَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَهِيَ الفِتْنَةُ الَّتِي تَلَوْتَ الآيَ فِيهَا. وَأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تُعَلِّمَهُ جَمِيعَ مَا عَلَّمَكَ، وَتَسْتَحْفِظَهُ جَمِيعَ مَا اسْتَحْفَظَكَ وَاسْتَوْدَعَكَ، فَإِنَّهُ الأَمِينُ المُؤْتَمَنُ.

---

(١) نصّ ناقته: استحثّها واستقصى آخر ما عندها من السير.

(٢) الأمالي للطوسي ص٤٧٦.

يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي اخْتَرْتُكَ مِنْ عِبَادِي نَبِيّاً، وَاخْتَرْتُهُ لَكَ وَصِيّاً.

قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ الله (ص) عَلِيّاً (ع) فَخَلَا بِهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ وَلَيْلَتَهُ، وَاسْتَوْدَعَهُ العِلْمَ وَالحِكْمَةَ الَّتِي آتَاهُ الله إِيَّاهَا، وَعَرَّفَهُ مَا قَالَ جَبْرَائِيلُ.

وَ كَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ عَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولُ الله، لَقَدْ طَالَ اسْتِخْلَاؤُكَ بِعَلِيٍّ مُنْذُ اليَوْمِ! قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهَا رَسُولُ الله (ص). فَقَالَتْ: لِمَ تُعْرِضُ عَنِّي يَا رَسُولُ الله؟

قَالَ: بِأَمْرٍ لَعَلَّهُ يَكُونُ لِي صَلَاحاً لِمَنْ أَسْعَدَهُ الله بِقَبُولِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ، وَقَدْ أُمِرْتُ بِدُعَاءِ النَّاسِ جَمِيعاً إِلَيْهِ، وَسَتَعْلَمِينَ ذَلِكَ إِذَا أَنَا قُمْتُ بِهِ فِي النَّاسِ.

قَالَتْ: يَا رَسُولُ الله، وَلِمَ لَا تُخْبِرُ بِهِ الآنَ لِأَتَقَدَّمَ بِالعَمَلِ بِهِ، وَلِآخُذَ بِمَا فِيهِ الصَّلَاحُ؟

قَالَ: سَأُخْبِرُكِ بِهِ فَاحْفَظِيهِ إِلَى أَنْ أُؤْمَرَ بِالقِيَامِ بِهِ فِي النَّاسِ جَمِيعاً؛ فَإِنَّكِ إِنْ حَفِظْتِيهِ حَفِظَكِ الله فِي العَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ جَمِيعاً، وَكَانَ لَكِ الفَضِيلَةُ بِسَبْقِهِ وَالمُسَارَعَةِ إِلَى الإِيمَانِ بِالله وَرَسُولِهِ. وَلَوْ أَضَعْتِيهِ وَتَرَكْتِ رِعَايَةَ مَا القِيَ إِلَيْكِ مِنْهُ، كَفَرْتِ بِرَبِّكِ، وَحَبِطَ أَجْرُكِ، وَبَرِئَتْ مِنْكِ ذِمَّةُ الله وَرَسُولِهِ، وَكُنْتِ مِنَ الخَاسِرِينَ، وَلَمْ يَضُرَّ الله ذَلِكَ وَلَا رَسُولَهُ.

فَضَمِنَتْ لَهُ حِفْظَهُ وَالإِيمَانَ بِهِ وَرِعَايَتَهُ، فَقَالَ (ص): إِنَّ الله تَعَالَى أَخْبَرَنِي أَنَّ عُمُرِي قَدِ انْقَضَى، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْصِبَ عَلِيّاً لِلنَّاسِ عَلَماً، وَأَجْعَلَهُ فِيهِمْ إِمَاماً، وَأَسْتَخْلِفَهُ كَمَا اسْتَخْلَفَ الأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي أَوْصِيَاءَهُمْ..[1].

وهذا خبرٌ طويل جمٌّ الفوائد معتضدٌ بالشواهد، فليراجع من شاء وليقبس منه ما شاء الله تعالى.

المسير إلى الغدير

ودّع رسول الله صلى الله عليه وآله مسقط رأسه، ومربع صباه، ومدفن أحبته، طليعة المؤازرين المصدّقين المضحّين، الذين حُرموا من رؤيته ظاهراً فاتحاً، ورحلوا عنه في ساعة العسرة، منهم خديجة وأبو طالب وياسر وسمية.

وغادر مهبط أول آيات الوحي، وموطن آبائه الغر الميامين، وأول بيت وضع للناس

(١) إرشاد القلوب إلى الصواب للديلمي ج٢ ص٣٢٩ وعنه المجلسي في بحار الأنوار ج٢٨ ص٨٦.

العتيق الذي رفع قواعده أبواه إبراهيم وإسماعيل، مجمع ذكرياته المريرة الحلوة بمرارتها..

لم يخرج منها هذه المرة طريداً متخفّياً، على حين غفلة من أهلها، بل خرج بمائة ألفٍ أو يزيدون، لكنه مع ذلك **كان يوجس خيفةً على أمته ورسالته**، ويستعد لتكليفه الأكلف.

دعهُ وثنه

وما رواه العياشي رضوان الله عليه في تفسيره لجدير بالالتفات[1]:

عن عمار بن سويد قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول في هذه الآية: ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾.

قال: إن رسول الله (ص) لما نزل غديراً قال لعلي (ع): إني سألت ربي أن يوالي بيني وبينك ففعل، وسألت ربي أن يواخي بيني وبينك ففعل، وسألت ربي أن يجعلك وصيي ففعل.

فقال رجلان من قريش: والله لصاع من تمر في شن بال أحب إلينا فيما سأل محمد ربه، فهلا سأله ملكاً يعضده على عدوه، أو كنزا يستعين به على فاقته! والله ما دعاه إلى باطل إلا إجابة له؛ فأنزل الله عليه: ﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية.

قال: ودعا رسول الله (عليه وآله السلام) لأمير المؤمنين في آخر صلاته رافعاً بها صوته يسمع الناس، يقول: اللهم هب لعلي المودة في صدور المؤمنين، والهيبة والعظمة في صدور المنافقين.

فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا * فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ بني أمية.. الخبر[2].

---

(١) عين من عيون هذه الطائفة، وكان في أول أمره عاميّ المذهب، وسمع حديث العامة فأكثر منه، ثم تبصر وعاد إلى الحق، وكان حديث السن، سمع أصحاب علي بن الحسن بن فضال، وعبد الله بن محمد بن خالد الطيالسي، وجماعة من شيوخ الكوفيين والبغداديين والقميين.

(٢) تفسير العياشي ج٢ ص١٤٢.

انسحاب يؤذن بالانقلاب

وقد سُجلت ظاهرةٌ خطيرةٌ ومؤلمةٌ أخرجها أحمد بن حنبل في مسنده، وابن حبان في صحيحه، وغيرهما في غيرها، أنه حين منصرفه من مكة بلغ وادي قُديَد (تصغير القد) فجعل ناسٌ من أصحابه يستأذنون، فجعل (ص) يأذن لهم فقال رسول الله (ص):

مَا بَالُ شِقِّ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَلِي رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) **أَبْغَضُ إِلَيْكُمْ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ!**

فَلَمْ تَرَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ القَوْمِ إِلَّا بَاكِيًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الَّذِي يَسْتَأْذِنُكَ بَعْدَ هَذَا لَسَفِيهٌ[1].

ولك أن تقول بأن انسحاباً يستدعي هذا القول من النبي صلى الله عليه وآله وهو مدينة الحكمة، لا يمكن أن يكون جزئياً ولا بريئاً ولا عفويّاً، وبالنظر إلى الظروف الموضوعية وسلسلة الأحداث والأفعال وردود الأفعال التي تقدم التعرض إلى بعضها ساغ لقائل أن لا يستبعد كون ذلك جزءاً من مؤامرة أو حركة تمرد استباقية، للتقليص من فاعلية مهرجان الغدير وإحباط مفعوله.

انسحاب تقدّمي!

كما سُجِّلَت حركةٌ أخرى تقدمت المهرجان، وهي مفارقة ركب النبي صلى الله عليه وآله، والمسارعة بالسير قدماً نحو المدينة المنوّرة، وقد يضاف إليها حركة تباطؤٍ تخلف فيها جمعٌ عن ركبه، فلم يكن منه حين توقفه في غدير خمٍّ إلا أن يأمر بانتظار المتخلفين واسترجاع السابقين، ليلتئم الجمع ويعقد المهرجان، وتؤدى الأمانة وتُبَلَّغ الرسالة، وتؤخذ البيعة لصاحبها بأمر الله تعالى ولو كره المتخلفون والمستعجلون.

محاولات الإجهاض

بعد ذكر الحركتين نكتفي بالإشارة إلى أهمّية تتبع مشروع الانقلاب على الأعقاب، في تحركاته المقابلة والمقارنة لمشروع الغدير، في الوصول إلى محورية الغدير أيضاً - خصوصا بعد

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي ج٢ ص٦٢٠ وصحيح ابن حبان ج٥ ص٣٣٥.

الالتفات إلى ما ذكرته في مناسبات عدة من حقيقة القطب السلبيِّ المقارِن – كقضية الصحيفة وأصحابها.

وقد لا يبعد القول – بمعونة بعض القرائن الخارجية– بأن تذرُّع بعض النساء بالحيض تارةً، وبالرغبة الملحّة على العمرة بعد الحج أخرى، كان **بغية تأخير المهرجان** مهما أمكن، لتلتقي مع محاولة إجهاض الغدير ورسالته.

ونخص بالذكر قضية مؤامرة الصحيفة وأصحابها، وما روي في شأن نزول آياتٍ من سورة البقرة وآل عمران والتوبة والنمل والمجادلة ومحمد فيها.

مهرجان الغدير

وههنا أعود وأذكِّر أنني في مجالٍ ضيق متضايق، يسد علي باب الإسهاب، ويحول بيني والتفصيل، فما تقدم يستدعي الكثير من الشرح، والمزيد من البيان، فضلاً عن **محطات لم تر للبثِّ طريقاً، فيها براعة تمهيد، ومزيد تأكيد لرسالة الغدير**.

ولا بد لي من التنويه بجهود التجارب المتراكمة، والجهود المضنية التي قدمها أعلام الطائفة في هذه الواقعة القضية عبر العصور، بدءاً من الصدر الأول إلى أوجها على يد الأعلام الثلاثة، القامات الشامخة، سدنة الحق، أصحاب الأسفار النفيسة والكتب الشريفة:

١. السيد حامد حسين اللكهنوي الهندي في موسوعة عبقات الأنوار.

٢. والشيخ عبد الحسين الأميني في موسوعة الغدير.

٣. والسيد عبد الحسين شرف الدين في جملة من آثاره التي تقدمها كتاب المراجعات

وقد قيّض الله من بعدهم نفراً من أعلام المعاصرين، منهم مُلَخِّصُ العبقات في نفحات الأزهار، ومُشيّد المراجعات ومفند المكابرات.

ومنهم صاحب كتاب الغدير والمعارضون مما أدرجه في موسوعة (الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله).

ولصاحب كتاب (حجة الوداع) صولة مشهودة وجهد مشكور .

فلا يسع المؤمنين إهمال هذه الكتب، لتحتيم حق الولاء، وآيات الوفاء للنبي الأعظم خاتَم النبيين وخاتِم المرسلين، ونفسه الأفخم أمير المؤمنين صلى الله عليهما وآلهما، ثم لأدنى مراتب عرفان الجميل لأعمار الأعلام التي أنفقوها في هذا السبيل.

خصوصية الزمان والمكان

إن الذي جرّب الحج يلمس بوضوحٍ بأن الحاجَّ يتوق بعد أداء مناسكه للعودة، ويحرص على تقديم موعدها، وقد يقع التزاحم بين الحجيج لذلك ولو لأيام أو يوم واحد .

فكيف بنفيرٍ عام، ومسيرة جماهيرية شاقة، تخللها الكثير من الأحداث والمواقف والمشادات والمواجهات، أعقبتها مناسك مقارنة لبلاغات وبيانات وأفعال متشتتة، محاطة بكثير من التشويشات والاستفزازات، كل ذلك يقضي بإنهاء المسيرة استراحةً في مكة المكرمة، أو إسراعاً بالعودة إلى الوطن.

ثم إن موضوع المهرجان المزمع عقده ظهرت حساسيته القصوى، وعدم تقبل جمهورٍ لا يستهان به له، ويعضدهم على ذلك أمورٌ أيسرها موتوريّة القبائل في مجتمعٍ قَبَليّ، وغلَّها الذي تحمله تجاه رسول الله، الذي سادهم ونسف جاهليتهم الأولى، ولم يكن لهم عليه يدٌ أو فيه مغمز.

وأمير المؤمنين ذو الفضائل المشهورة، الذي زوجَّه رسول الله بضعته الزهراء، وسدَّ الأبواب إلا بابه، **والذي أذل عتاة جبابرتهم بنكير سيفه، وتنمره في ذات الله**، مع تقديسه لرسول الله، وهذا ما يحملهم على جحودهم لحقه بغضاً له وللنبي صلى الله عليه وآله، الذي لا يمكنهم البوح بحقيقة مشاعرهم تجاهه، مما يدعوهم لنفث سمومهم على أخيه ونفسه.

كل ذلك كان كفيلاً بالإعراض عن الخطوة التالية.

كان النبي يحاول أن يكون **التبليغ في سياقه وظرفه الزماني والمكاني الطبيعي**، ولمّا حيل بينه وبين ما أراد، وتكرر نزول الوحي مؤكّداً عليه حتى الوعيد الذي هو -كما هو دأب أسلوب الكتاب في خطاباته النازلة- **بِإِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَة**[1]، عَمَدَ إلى العمل على التبليغ في **أرضٍ نائيةٍ خارجةٍ عن دار الطلقاء، في مهرجان مستقلٍّ لا يترك المجال للغاغة أن يشوّشوا عليه**، ليُقال بعدها لمن لم يسمع القول أنه كان يتكلم بكلامٍ فرعيٍّ من وحي المناسك، وأرض منبسطةٍ يسهل فيها إيصال الصوت ورصد التحركات، ولا يؤثر على رؤية الحاضرين له قيام قائم أو نزو نازٍ.

لقد جمع عناصر الإنجاح بإتقانٍ باهر.

أذَّنَ بالتوجه إلى تلك البقعة التي ليست محطة طبيعية، ولا مفترق طرق - وكم من مشهورٍ لا أصل له - وإن كانت على مقربة من مفترق الطرق.

---

(١) الكافي ج٢ ص٦٣١.

واختار من الأوقات أشدَّها حيث شمس الحجاز بعد الزوال.

تكرر الوحي ولحن الإنذار

أشرنا مراراً إلى أن القرآن الكريم وإن كان في خطاباته متوجهاً للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله، إلا أن النقل مؤيداً بالاعتبار ينص على أن المقصود بالتفهيم هم المكلفون، وأنهم هم المعنيون.

ولو أراد عتاباً أو خطاباً لشخص النبي لأفضى إليه بذلك خاصة دون أن يسمع غيره، فليس لنا أن ننسى بأنه حبيب الله وصفيّه ونجيّه.

وبناء على ما تقدم نعلم بأنه أراد لنبيه صلى الله عليه وآله وفي مهمته الشاقة تلك، حيث أمره بتبليغ الولاية والإجهار بالخلافة وأخذ البيعة لأمير المؤمنين من المسلمين، أراد أن يعلن عن أمور من جملتها:

١. **أنه أمرٌ من الله تعالى، وحكمٌ محتَّمٌ منه**، وليس لأحد من الخلق أن يتنكب عن أمره، وليس من عند النبي أو بطانته.

٢. **أنه عزيمةٌ لا رخصة**، فلا ينظر إلى الظروف المعاكسة، ولا يُعبأ بردود الأفعال الجنونية التي قد تواجهه.

٣. **أنه يعادل الرسالة في قيمته، بل الرسالة رهنه**؛ فعدمه عدمها، وبدونه كأن لم تكن.

٤. **أنَّ الناس لها كارهون، وللنبي في تبليغ رسالته مهددون**، وللمنع من التبليغ بكل ما أوتُوا من قوة مستعدّون.

وللبحث في شأن النزول ودلالة الخطابات القرآنية الغديرية بألفاظها وسياقاتها الخارجية، وقرائنها الداخلية، وما وشّاها من الأخبار والآثار بابٌ واسعٌ وكلامٌ عريضٌ، من سورة المائدة، إلى بعض السور التي تقدمت الإشارة إليها، إلى أهمها وهي ما واكب المهرجان من القرآن، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَالله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾[1].

---

(١) المائدة٦٧.

﴿اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾[1].

لكننا نكتفي بإشارات خاطفة عملاً بقاعدة الميسور:

الإشارة الأولى:

مخاطبته بوصف الرسالة، وفي ذلك تعظيمٌ له، وتأكيدٌ على أنه رسولٌ في بلاغه، والرسول يتوقع منه أن يكون أميناً في رسالته، معذوراً في ذلك، لا يؤاخذ على مضمونها مهما كان.

وقد كان أهل الجاهلية يراعون هذه الصفة حتى ولو كان رسولاً لأعدى أعدائهم وألد خصومهم حال استعار الحرب.

الإشارة الثانية:

﴿بَلِّغْ﴾ وهو **فعل أمرٍ من أعلى جهة بيدها الملك**، ومنها الإنعام كله، وإليه الإياب وعليه الحساب.

﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ تأكيدٌ على كون **بلاغ الولاية لم تنله يد بشر**، بل هو منزَلٌ، وما على الرسول إلا البلاغ.

﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ قضيةٌ شرطيةٌ، أداة الشرط فيها (إن) بدلاً من (إذا)، وهما وإن كان بينهما اشتراكٌ، لكن بينهما امتيازٌ وافتراقٌ معنى وعملاً.

على أن القضية الشرطية صدقها لا يستلزم صدق طرفيها، بل قد يكون المقدم أو التالي أو كلاهما محالين، غاية ما هنالك تفيد القضية الشرطية قيام علاقةٍ وثيقةٍ وتلازمٍ بين طرفيها، بحيث إنه على تقدير تحقق المقدم يتحتم وجود التالي.

﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ إن لم تبلغ ما أنزل إليك فإن هذا **يفرز عنه لزوماً عدم تبليغ رسالته**، ومن الواضح جداً أنَّ المعنيَّ بما أنزل إليه من ربّه ليس هو الرسالة بأكملها، بل هو جزءٌ من الرسالة يعادلها، بحيث إنَّ **عدم إبلاغه يساوق عدم إبلاغها**.

الإشارة الثالثة:

---

(١) المائدة٣.

العصمة من الناس، وقد جاء في بعض الأخبار أنَّ النبيَّ راجع ربه في التبليغ طالباً العصمة منه في تبليغه.

وتقدم ما كان من القوم في إعقام تبليغه حتى وصلت بهم الحال إلى الوقاحة السافرة، والمتوقع منهم المزيد بحيث إنهم **لا يَرعَوُونَ عن اتهام النبي بالهجر والهذيان -معاذ الله-**، فلا يبقى لبلاغه أثر.

ولذلك، ولمناسبة الحكم والموضوع، **لا يعقل أن تكون العصمة من الناس في إيصال الأذى لشخصه، ولم يكن حرصه على حياته**، وإنما فيما يرتبط **بتكليفه ومهمته**، وهي **إبلاغ الولاية الكبرى**، فالعصمة من الناس فيما هو بصدده، وهذا ما نراه جليا جداً في مهرجان الغدير.

خطب خطبته العصماء، والتي مهد فيها بتمهيداتٍ واستشهاداتٍ ومناشداتٍ، وهي خطبة مفصلة استأثرت بعض المصادر ببعضها، وأهملها بعضها الآخر، وجاءت مصادر أخرى لتنقل ما لم ينقله غيرها، تاركةً ما نقلته تلك المصادر.

وبذلك **يقوى جداً أن أيا منها لم يستوعبها**، مما حدا ببعض أهل العلم من المعاصرين أن يجمع الخطبة جمعاً بين المصادر، وهو وإن لم يسغ عند أهل الاختصاص بجعلها روايةً وحديثاً واحداً متكاملا، إلا أن ذلك **لا يمنع من هذا العمل، ولا يقلل من شأنه**، ولا ينزل من قيمته العلمية، فهذا منهجٌ سديدٌ يعمل على لملمة تراثٍ تناثر بفعل الظروف والميول، وبات يعرف هذا المنهج بعنوان (**إعادة بناء النصوص المفقودة**).

إن الخطبة الغديرية لو لم يكن فيها إلا **إثباته لعلي ما أثبته لنفسه** بعد أن أقرَّهم على ذلك مناشداً **لكفى في إحداث هرجٍ ومرجٍ** فيما بين الجموع، إن لم يؤد ذلك إلى النزاع والتقاتل.

يظهر ذلك استشفافاً من رزية الخميس، حيث لم يزد النبي على أمره بالكتف والدواة ليُكتبَ نصٌّ فيه أمانٌ من ضلالة الأمة من بعده. هذا.

وهو طريح فراشٍ مؤذنٍ بفراق، وللموت رهبته، وهو في داره، وللدور حرمتها، وبين أهله المفتجعين، ومع ذلك لم يسلم من المعترضين حتى سفّهوا رأيه، ومنعوه من تحقيق رغبته الأخيرة، ودار النزاع بين الحاضرين، **فطردهم من محضره**.

وقد تقدم ما كان من القوم بإزاء خطبته في عرفة، أما في الغدير فألقى خطبته وأسهب في بيانه، وجعل علياً أمير المؤمنين معه مشيراً إليه، رافعاً يده، ثم أخذ البيعة له منهم، وهم كأن على رؤوسهم الطير، ولم يُسَجَّل اختراقٌ يستحق الذكر، أو اعتراض يلقى صدى.

إنها عصمة الله لنبيه في بلاغه، تلك العصمة التي سألها وأوتي ما سأل، فظلوا صامتين ثم تحرَّكوا وكأنهم مُسَيَّرون غير مختارين.

الإشارة الرابعة:

﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ وبذلك ختم الآية ليبين حقيقة الناس الذي تم الوعد بعصمة النبي منهم في تبليغه.

﴿اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُم﴾ إنَّ رسالة الغدير وإن كانت ليست بجديدة كما تقدم، وجاءت مع البلاغات التي واكبت فجر الدعوة متسقةً، لكنها تفرّدت بجملةٍ من الخصائص التي جعلتها باعثةً لليأس في نفوس معارضي الولاية، ولم يكونوا من الآيسين من قبلها، ومتعلق هذا اليأس هو دين المؤمنين، فالدين بلغ مرحلة الأمان من شرّ من أراد به سوءاً ومكائدهم ببركة الغدير.

وأما وصف اليائسين من الدين بالكافرين فهو تأكيدٌ للوصف الوارد في ختام آية الأمر بالتبليغ، وقد يلتقي الوصف المذكور في الموضعين بما ورد في سورة التحريم من تهديدٍ ووعيدٍ ومثلٍ مضروبٍ للذين كفروا، خصوصاً مع ملاحظة مناسبة نزولها والتأمل في مدلولها.

تمهيدات ميدانيّة

إنَّ الخصوصيات الإيجابية للأرض لم تكن كافية، ولذا كان المهرجان يحتاج إلى تأهيلٍ ميداني لها، لتتآلف الخصوصيات الطبيعية مع تلك التأهيلات، فتنتهي إلى استحداث بيئةٍ حاضنة له.

ومن ثمّ بادر الرسول صلى الله عليه وآله للأمر بها؛ فمن رفع الأشواك والأحجار، وشَدّ المتدليات من الأشجار المعمرة، وجمع الأغصان وإلقاء الأثواب عليها لاستحداث مظلات، إلى كنس الساحة ورشها بالماء، إلى تشييد منبرٍ من الأحجار والأحلاس والقتب يستشرفُ

الجمع متوسطاً طرفيهم.

التبليغ شكلاً ومضموناً

مائة ألفٍ أو يزيدون اصطفوا لصلاة الظهر في ساحةٍ واحدةٍ بعد زوال الشمس، ميممين وجوههم شطر المسجد الحرام، مؤتمّين بسيد العصمة حبيب الله صلى الله عليه وآله.. صلاةً منصهرةً بصلاة صلة الوصل بين المخلوق وخالقه، الذي كان صلة وصلٍ بين الخالق ومخلوقه، ولنا أن نتصوّر تلك الصلاة التي **لم يشهد التاريخ نظيراً لها من قبل ولن يشهد إلى يوم الفتح الأكبر بإذن الله.**

ثم **رقى المنبرُ برُقيّه،** مصطحباً عليّاً، واستقر في أعلاه وعليٌّ دونه، فاستقبلا الجموع وأنشأ خطبته مستهلاً بحمد الله وتوحيده وتقديسه وتمجيده، ورصف صفاته وأسمائه، عقداً فريداً جلّى فيه معالم التوحيد، مقرَّاً بمحض العبودية له.

ثم نعى نفسه، **وثنّى تصريحاً مؤكَّداً أنه مبلّغ عن الله تعالى بأمرٍ منه** وحياً هبط به جبرئيل، لا يقبل الإعفاء ولا التواني، **بإمامة عليٍّ وولايته،** آمراً بالاستماع والطاعة والانقياد لأمر الله، مبيّناً سلسلة المراتب طولاً منه تعالى، فالنبي، فعلي، فالأئمة من ولده.

ثم ضرب على عضد عليٍّ فرفعه حتى صارت رجله مع ركبة رسول الله، ونادى: **أَلَا مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللهمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَه**[1].

وقد مازج خطابه بخطاب أصدق القائلين، فاقتبس من آي الكتاب عباراتٍ، وضَمَّن منها آياتٍ، ومنها ما نزل لتوّه بالمناسبة ما إنْ فرغ من ذكر الولاية في خطبته، وهو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾[2].

ليرسخ مفهوم ارتباطِ حقيقة الولاية بالوحي القرآني في النفوس، وأنه في تبليغه هذا ومن قلب الحدث يواكبه في كل حركاته وسكناته.

---

(١) المصادر كثيرةٌ تفوق الإحصاء، ونص العبارة هذا من تفسير القمي ج١ ص١٧٤.

(٢) المائدة٣.

على هامش الخطبة

- بمراجعة مصادر الحديث والتاريخ والسيرة يلاحظ جدَّاً تصريحاً **أنَّ أحداً منهم لم يَّدعِ أنه جاء بنصّ الخطبة كاملاً**، بل في أكثرها نَصٌّ على أنه **اقتصر على طرفٍ منها**، وأن ما جاء به **هو قليلٌ من كثير، ومجملٌ من مفصّل**، وبذلك يفتح الطريق لغيره فلا ينفي ما عداه البتة.
- يقوى في النظر جدَّاً أن **جملة من الإجمال كان بسبب حساسية التفصيل**، والذي يصادم أهواء بعض المحدثين والمؤرخين وأصحاب السير والمؤرخين والحكام والسلاطين.
- إنَّ جمع تلك التفاصيل في نصٍّ واحدٍ على أنه الخطبة الكاملة لا يصيّرها رواية واحدة، بل لا بدَّ من نقل كل رواية على حدة بمصدرها وطريقها، ولكنه لا يمنع من لملمة شتاتها في نص متّحد بواسطة آليات (إعادة بناء النصوص)، وذلك اعتماداً على الشواهد والقرائن الداخلية والخارجية، ومنها أسلوب المتكلم في نصوصه السليمة المتوفرة، ومناسبة صدور الخطبة، وحال المخاطبين ونحو ذلك، **وبذلك يمكن الحصول على نَصٍّ واحدٍ متماسكٍ معتبرٍ** بمصادره وشواهده، كما هي الحال في منهج التحقيق التاريخي، والتفصيل موكل إلى محله.
- إنَّ القدر المشترك بين المصادر على اختلافها يهتف بمعنى واحد وعنوان فارد، **يتلخص بمحورية علي وأهل البيت** صلوات الله عليهم أجمعين، وهو السبب الذي دعا لذلك الموقف بكل تمهيداته وفصوله وتفاصيله.
- الخطبة جاءت منسبكةً مع ما قبلها من البيانات النبوية، فلم تأت بشيء خارج عن سابقاتها، وإنما سُلّحت بالكثير من قاطعات العذر، وأهمها أخذ الاعتراف وإلزام المخاطبين، واستخراج دفائن النفوس ومكامن المعتقدات منهم، فلم تقتصر على الإلقاء والبيان فحسب، بل ركّزت على استنفار التفاعل مع الملقى إليهم والمبَيَّن لهم.
- إن من الخصوصيات البارزة في الخطبة جامعيَّتها للمنظومة الدينية، وتكريس موضع المكوّنات الرئيسة وعلاقتها فيما بينها ومستند حجيتها، مع رسمٍ توضيحيٍّ لمسار الأمة، وتنبيهاتٍ على الأخطار المحدقة بها في قابل الأيام، مع بيان سبيل الاعتصام وبوابة الأمان، حيث حمايتها من ذلك، وحُزمة من التحذيرات الجادّة.

- اشتملت على إخباراتٍ ملحميَّةٍ غيبيةٍ قد يحلو لبعض الناس أن يعبروا عنها باستشرافاتٍ مستقبلية، لها دورٌ هامٌّ في إعداد المؤمن واستعداده نفسياً وفكرياً وسلوكياً لمواجهة ما سيلقاه هو وما يحمله من الحق.
- شكّلت الخطبة فاروقية مستمدة من فاروقية موضوعها، لتكون مَحَكّاً يميز بها من تمسك بمفادها بين الحق والباطل **مَقشَعاً لكل شبهة ومُجلّياً لكل غبرة إلى يوم الدين**.
- جاءت بعض المصادر بمقطعٍ بالغ الأهمية يرتبط بمسار الأمة ومصيرها في المشهد الأخير، الذي يشكّل مرحلة تطبيق الرسالة الأكمل وامتدادها الأشمل وتحقيق أهدافها وغاياتها السامية، من خلال التعرض لشخصية الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وما ستتحقق من إنجازات على يديه، ليُشرع النبي بذلك أبواب الأمل والرجاء لمن آمن واستقام، وغلق نوافذ المطامع على أبناء مشروع الغواية، فإن العاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.
- **جاءت الخطبة نصاً لا ظاهراً في المعاني المقصودة**، مشتملةً على الاسم والصفة، والعنوان المشير واسم الإشارة، واستعملت فيها لغة الجسد لتشخص الموضوع والموصوف والمسند إليه، وشرحت فيها الأحكام والصفات مع توكيداتها.. بحيث لو كان الأصمّ الذي لا يسمع حاضراً في المهرجان لبلغه البلاغ، وللزمته الحجة وتنجّز عليه التكليف.

عاضداتٌ غديريّة تلت الغدير

ثلاثة أيام في الغدير كانت كفيلةً بأخذ البيعة وتأكيد الميثاق نساءً ورجالاً، حيث أدّى النبي مهمته الشاقة، وبقي تكليف الحاضرين في إشعار تبلّغهم وإظهار التزامهم ببيعتها شخصياً تفصيلاً مسلّمين عليه بإمرة المؤمنين.

ولّما سأل من سأل بعد خطبته العصماء وما جاء فيها وما سبقها من الله أو من رسوله؟

-وهي شنشنة التفريق بين ما كان من الله ومن رسوله نعرفها من أخزم- أجاب صلى الله عليه وآله -فيما روي عنه-:

نَعَمْ حَقّاً مِنَ الله وَرَسُولِهِ، فَقَالَ إِنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَقَائِدُ الغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ،

يُقْعِدُهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى الصِّرَاطِ فَيُدْخِلُ أَوْلِيَاءَهُ الجَنَّةَ وَيُدْخِلُ أَعْدَاءَهُ النَّارَ، وَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجل: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١].

وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الثَّانِي (ع) فِي قَوْلِهِ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله (ص) **عَقَدَ عَلَيْهِمْ لِعَلِيٍّ بِالْخِلَافَةِ فِي عَشَرَةِ مَوَاطِنَ**، ثُمَّ أَنْزَلَ الله ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ الَّتِي عُقِدَتْ عَلَيْكُمْ﴾ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع)[٢].

وقد توجّه رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض الحضور ممن يعلم بما يحمله من مبيتات النوايا ومكنونات الصدور بعد أن بلغه نجواهم: **مَا يَأْلُوا مَا رَفَعَ خَسِيسَةَ ابْنِ عَمِّهِ، لَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَهُ نَبِيّاً لَفَعَلَ، وَايْمُ الله لَئِنْ هَلَكَ لَنُزِيلَنَّهُ عَمَّا يُرِيد**[٣]، حيث سمعها شاب من الأنصار وأبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله بها فأمرهم حينئذ بالبيعة أمراً خاصّاً مؤكّداً.

وخرج بعضهم من خيمة البيعة بعدها متمطياً متوكئاً على صاحبيه وهو يقول: لَا نُصَدِّقُ مُحَمَّداً عَلَى مَقَالَتِهِ، وَلَا نُقِرُّ لِعَلِيٍّ بِوَلَايَتِهِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾[٤].

ونظير ذلك ما سمعه حذيفة بن اليمان من نجوى نقلها لرسول الله صلى الله عليه وآله فأحضر القائلين، ولما مثلوا بين يديه وسألهم عن مقالتهم أقسموا بالله أنهم ما قالوا شيئاً، فنزل قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[٥].

ونظيرها ما سمعه المقداد وأبو ذر، وما روي من إرجاف المنافقين تسفيهاً وتشكيكاً وتأليباً وتأنيباً واقتراحاً على رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يتراجع ويستبدل به أو يشرك

---

(١) تفسير القمي ج١ ص٣٨٩.

(٢) تفسير القمي ج١ ص١٦٠.

(٣) الأصول الستة عشر ص٣٣٣.

(٤) شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ج٢ ص٣٩٢.

(٥) عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار ص٣٤١.

غيره معه، ورد الرسول عليهم ونزول القرآن فيهم.

ثم ما صدر منه من كلمات عضدت مقالته في خطبته، وآيات إلهية ظهرت في السماء بحيث يرونها بلا مرية، ومن دعاء عندها رفعه إلى ربها قائلاً: اللهمَّ زِدْهُمْ آيَاتٍ، فَإِنَّهَا عَلَيْكَ سَهْلَاتٌ يَسِيرَاتٌ، لِتَزِيدَ حُجَّتُكَ عَلَيْهِمْ تَأْكِيداً[1].

وما كان من الحارث الفهري، وهو السائل بعذاب واقع، فكان ما أراد رجماً إلهياً، وأمثولةً ربانيّة تردفه في مشهدٍ يعيد مشاهد المرجومين من الشياطين، والآتين المنكر في ناديهم، والمتفيّلين القاصدين البيت الحرام بسوءٍ ليكون حجةً وعاضداً غديريّاً.

وفي السياق ذاته يمكن ذكر عواضد تمثلت في محاولتَي اغتيال النبي صلى الله عليه وآله في عقبة (هرشى) الذي استدعى نزول جبرئيل وإطلاع النبي صلى الله عليه وآله عماراً ابن ياسر وحذيفة رضي الله عنهما قائمةً بأسماء المنافقين، وأعقب ذلك عزمٌ على اغتيال علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ الله وَالله خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾.

إن ما سقناه من عاضداتٍ وإن كان غالبه ردة فعل على تحركات المناهضين لمشروعه، إلا أن سياسة الله تعالى في تحويل طغيان الطاغين وحركات المفسدين إلى جزء من إحكام مشروعه - كما هي حال حركة التمرد الإبليسي - احتوت تلك التحركات وجيّرتها لمصلحة إعضاد الغدير وإحكام رسالته.

أخوات الغدير

وتتميماً لفائدة الغدير لا يمكن غض الطرف عن **ذكريات ذي الحجة**، التي **جعلت منه بحقٍّ شهراً للولاية** في ذكرياتٍ تُعَدُّ شاهد صدق وتبصرةً لمستبصر، وحجةً على معاند، وحجراً يقطع طريق جحود كل جاحد.

ذكرياتٌ منها ما تقدم على الغدير بعامٍ أو أكثر، ومنها ما تلا رجوعه من حجة الوداع..

وإعادة التذكير بأخوات الغدير أمرٌ ضروري، وفيه تظهر مقولة (في الإعادة إفادة).. حيث يطالعنا شهر ذو الحجة بتصريحاتٍ نبويَّةٍ، كتبليغ سورة براءة، والثقلين الذي أعاده على

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ص٦٣٢.

المسامع، والمباهلة، والتصدق بالخاتم، ناهيك عن أخوات الغدير في غير ذي الحجة، والتي لا يكاد يخلو منعطفٌ أو مناسبةٌ بل أدنى ملابسة من موقفٍ أو مقالٍ أو تلميحٍ يُكَرِّسُ رسالة الغدير، كالدار والمنزلة والكساء والطائر المشوي وغيرها.

ولا ننسى تدابير اتخذها صلى الله عليه وآله كانت **بمثابة أشراك يقع فيها المبطلون،** وعلامات يهتدي بها المهتدون، فرقاً بين الحدّ الفاصل بين الحق وأهله والباطل وأهله..

منها بعث سريّة أسامة، وتأمير فتى في ميعة الشباب على كهولٍ وشيوخٍ، ليجعله وليّاً عليهم، وليفرغ المدينة المنورة من كل مناوئ، لاعناً من تخلّف عن جيشه، ولما تقاعس القوم خرج من داره فعقد الراية بيديه المرتعشتين.

ومنها أمره بإخراج أهل الكتاب من جزيرة العرب.

ومنها إخراج بعضٍ ممن توثّب في محرابه لإمامة الناس، والنبي لمّا يفارق الحياة بعدُ.

وأهمها بياناته في ابنته فاطمة صلوات الله عليها، وكونها معلماً للحق، **ووجوداً تنزيلياً لشخصه الكريم،** فأكملت بنت النبي صلى الله عليه وآله مشروعه من بعده، فكانت نِعم المذكر بالغدير، والشاهد على حقانيته بمظلوميتها. هذا.

مع كثيرٍ من حديثه صلى الله عليه وآله في الملأ العام أو في بيته أمام نفرٍ يسير ممن كان بحضرته في المدينة المنوّرة.

ومن تتبع قراراته كالوصية بأهل بيته مرة بعد أخرى، وذكر الظلامات التي ستحل بهم، والإعلان عن مصير من ناواهم وعاداهم أو تقدم عليهم واستخف بحرمتهم، وما يكون على الحوض من ذود بعض أصحابه وهم المحدثون بعده مما يطول سرده ويعرض شرحه.

زبدة المخض وتصريح المحض

وإذا أردنا أن نأتي بحصادٍ لهذه الجولة في محورية رسالة الغدير وفرادته عن غيره مع اتساقه مع غيره من البيانات، فهذا ملخصها في نقاط معدودة:

اتساقه:

- **روح رسالة الغدير هي الولاية الكبرى والخلافة العظمى**، الإمامة الإلهية والخلافة النبوية.
- الإمامة الإلهية والخلافة الإلهية محلها من المنظومة الدينية **محل القطب من الرحى في الجهة العقدية والتشريعية** منها، فتستدعي الولاية -بمعنى التولي- اعتقاداً من جهة، وفريضةً عمليةً، وهي التي إليها كانت الإشارة في أحاديث أركان الإسلام، حيث جُعلت مع الصلاة والصيام والزكاة والحج، وهي التي يذكرها الموالون في تعدادهم لفروع الدين، وهذا ما يُغفل عنه كثيراً.
- **لم يكن الغدير في أصل رسالته بياناً جديداً حادثاً**، وإنما **حلقةٌ في سلسلةٍ وجمانةٌ في عقدٍ**، جمانٌ كنظام الخرز من صدر الدعوة ومطلعها إلى ذيلها وختامها.
- كان الغدير تأكيداً على حقيقةٍ لطالما لاقت اعتراضاً ورفضاً وتشكيكاً من تياراتٍ عديدةٍ، يعينها على ذلك ما أثاره المشركون واليهود والناكثون.

فرادته

- تفرّده بجمع شتات ما جاء تدريجاً في غيره من مناقب عليٍّ وكفاءاته ومكانته ليلقى دفعة واحدة على الملأ.
- اقترانه بزخمٍ وحيانيٍ هائلٍ من آيات أعيد تنزيلها، وأخرى نزلت لأول مرة.
- جعله بعد رحلة فريدة هي حجة الإسلام.
- تحشيد جماهيري لا سابقة له ليكثر المتحملون لهذا الحديث.
- إشهادٌ لأبناء الأمصار النائية لتسير الركبان بحكايته ويبلغ أقاصي الأرض سناه.

- استنطاق الحضور وإشراكهم بتأكيده، وأخذ الشهادة على مقدماته مزيداً في الإلزام.
- أخذ البيعة وتأكيد العهود وتغليظ المواثيق.

وبهذه النقاط **نجد الغدير لا شبه له ولا نظير** في إبلاغ أية حقيقة دينية في هذه الرسالة وسائر الرسالات السماوية، وأصدق القول فيه ما ورد من آية إكمال الدين وإتمام النعمة.

فهرس المحتويات

مدخل..... ٢

تمهيد: الغدير الرِّسالة والرَّمز والشِّعار..... ٣

محورية الخلافة النبوية والإمامة الإلهية..... ٤

تنبيه منهجي..... ٤

منهجية البحث العلمي بين التسطيح والسَّرطَنة الفكرية..... ٥

الأدلة على محورية الخلافة..... ٥

الأوّل: الارتكاز الشيعي..... ٥

الثاني: الخطابات القرآنية..... ٦

الثالث: التراث الحديثي..... ٦

اتساق الغدير..... ١٠

فرادة الغدير..... ١٢

أهم الأحداث التي سبقت الواقعة..... ١٢

ثبوت الإعجاز الحضاري..... ١٢

إقصاء دنس المشركين عن الحج..... ١٢

النفير العام..... ١٣

بعث اليمن..... ١٤

تمهيداته المكية..... ١٤

مواقف الموقف..... ١٦

خطبة الخيف وأخواتها..... ١٨

تصريح ختام المناسك..... ١٩

المسير إلى الغدير ٢٢
دعاءٌ وثناء ٢٣
انسحاب يؤذن بالانقلاب ٢٤
انسحاب تقدّمي! ٢٤
محاولات الإجهاض ٢٤
مهرجان الغدير ٢٦
خصوصية الزمان والمكان ٢٦
تكرر الوحي ولحن الإنذار ٢٨
تمهيدات ميدانيّة ٣١
التبليغ شكلاً ومضموناً ٣٢
على هامش الخطبة ٣٣
عاضداتٌ غديريّة تلت الغدير ٣٤
أخوات الغدير ٣٦
زبدة المخض وتصريح المحض ٣٨
اتساقه: ٣٨
فرادته ٣٨
فهرس المحتويات ٤٠